

المعاصرين. غير أن هذه المسألة تطرح اليوم في سياق التداخل بين العلوم والمعارف أو في إطار القطيعة المحتملة بين مؤرخي البلاغة ومنظري الحجاج، كما تناقش هذه المسألة أيضا بين الأدباء الذين يعكفون على رصد صور الخطاب وبين الفلاسفة الذين يهتمون بطرق الاستدلال، من دون إغفال التطويرات اللغوية في أبعادها البلاغية وامتداداتها الأسلوبية. فما المقصود بالحجاج؟

يرى دوكرو أن الحجاج عند فعل لغوي وليس فعل خطاب لأنه يقوم على بناء معنى الملفوظ.<sup>1</sup> أما الحجاج البلاغي فهو كل ما له علاقة بالاستدلال وبفن الإقناع بواسطة اللغة مع التذكير بالقطيعة التاريخية بين فن الاستدلال وفن الإقناع من جهة، وبين فن القول من جهة أخرى هذا التمييز بين فن الإقناع وفن القول قد تم إعادة تشكيله ابتداء من 1970 من خلال اتجاهين بلاغيين جديدين و متعارضين، الاتجاه الأول تمثله المدرسة البلجيكية التي أسسها برلمان<sup>2</sup> Perelman وتتخذ من التراث الأرسطي منطلقا لها كما تنظر إلى البلاغة باعتبارها مجموعة من الوسائل التعبيرية القادرة على الإقناع، أما الاتجاه الثاني فتمثله جماعة مو البلجيكية Groupe µ التي تقترح مقارنة بنوية في دراسة الصور تطلق عليها بلاغة عامة.<sup>3</sup>

وبالنسبة لبرلمان وتيتيكاه فإن الحجاج Argumentation يطلق على العلم وموضوعه، أي على تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التصديق<sup>4</sup> وربما كانت وظيفته محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على العمل المطلوب.<sup>5</sup>

### البلاغة والحجاج عند برلمان

يحدد برلمان (C.Perelman) الحجاج باعتباره مجموعة من التقنيات الخطابية الموجهة إلى إقناع المتلقي أو الرأي العام سواء كان المتلقي فردا أم جماعة. ولا يختلف الأمر بالنسبة للبلاغة التي توجه أيضا إلى مختلف المستمعين: سواء تعلق الأمر بالحجاج الموجهة إلى المتلقي، أم بالحجاج التي يوجهها الشخص إلى نفسه في مقام حوار ذاتي. ومن هنا تم النظر إلى الحجاج باعتباره بلاغة جديدة تشمل الخطاب في كليته، بصرف النظر عن نوعية المستمع الذي يتوجه إليه الخطاب.

محمد القاسمي  
كلية الآداب، سايس  
فاس، المغرب

## البلاغة والحجاج بين الاتصال والانفصال

تسجل البلاغة الحجاجية في الدراسات المعاصرة نفسها ضمن علوم اللغة لأنها غالبا ما تستعمل الأدوات اللسانية ورغم الأهمية التي تكتسبها البلاغة الحجاجية في الدراسات اللغوية المعاصرة، فإن تدريسها يبقى محصورا على بعض الجامعات الأنكلوساكسونية (الأمريكية والكندية) حيث يتم تدريس البلاغة ونظريات الحجاج في المقررات الدراسية بشكل رسمي. أما في الدراسات الفرنسية فإن الاهتمام بالبلاغة والحجاج لا يتجاوز حدود بعض الأبحاث العلمية المتعلقة بتاريخ البلاغة، و لا تختلف الصورة بشكل كبير عن موقع البلاغة والحجاج في الجامعات العربية، حيث يتم تدريس البلاغة بمعزل عن الحجاج و بعيدا عن سياقها التواصل، وسط دعوات مؤسفة لموت البلاغة العربية والنقد الأدبي بشكل عام وذلك باسم الحدثة و"العصرنة" بدل الدعوة إلى تطويرها وتحديثها كما هو الشأن في الدراسات الأنجلوساكسونية التي نجحت في إقحام البلاغة الحجاجية في المساجلات السياسية والمرافعات القانونية والحوارات التلفزية وكل الأنشطة الفكرية القائمة على الإقناع بواسطة اللغة والخطاب.

وعن علاقة البلاغة بالحجاج، فإن مواقف الدارسين للعلاقة بين البلاغة والحجاج تتراوح بين المطالبة بالقطيعة التامة بينهما وبين النظر إليهما باعتبارهما حقلين وتخصصين مستقلين أو على الأقل إن أحدهما يكمل الآخر، وبين اعتبارهما وجهين لعملة واحدة نظرا لوظيفتهما المشتركة. ويندرج موقف برلمان ضمن هذا التصور الذي يرفض الفصل بين البلاغة والحجاج، على اعتبار أن وظيفة كل منهما التأثير في المتلقي.

ويرجع اختلاف هذه المواقف، المتناقضة أحيانا، إلى التصورات المختلفة لمفهوم الحجاج والبلاغة، وتقترب هذه الدراسة البحث في قضية العلاقة بين البلاغة والحجاج. ورغم أن هذه القضية قديمة فإنها لازالت تحظى باهتمام الدارسين

هذا التمييز بين فن الاستدلال وفن الإقناع من جهة، وبين نظرية الصور من جهة أخرى، سمح بإعادة توزيع المهام التي تأخذ بعين الاعتبار المفهوم العام للخطاب. فإذا كانت بلاغة كل من برلمان وتيتكا Tyteca توسع من دائرة أمثلتها لتشمل بالإضافة إلى الشواهد الأدبية الشواهد الفلسفية والقانونية والسياسية وذلك بإدماج الأدب في سياق الاستدلال، فإن مشروع جماعة مو البلجيكية لا يركز إلا على خصوصية اللغة الأدبية. ويتحقق هذا الفصل بأشكال مختلفة ومعقدة في مختلف نظريات الحجج المعاصرة، عكس المتأثرين بالتراث الأرسطي الذين يلحون على اعتبار البلاغة والحجاج وجهان لعملة واحدة.

و إذا البلاغة الجديدة عند كل من برلمان وتيتكا عبارة عن تقنيات منطقية تعمل على تنمية الفكر وتطويره<sup>12</sup>، فإن بلاغة روبول Reboul هي فن الإقناع بواسطة الخطاب. وللفضل بين الوهم والحقيقة دعا برلمان إلى ضرورة التمييز بين البرهان والحجاج المرادفين في غالب الأحيان للبلاغة فالبرهان يمكن أن يصل إلى درجة الحقيقة من خلال معطيات منطقية خارجة عن كل سياق تواصلية أو أي كلام حجاجي يستعمل اللغة الطبيعية في سياق تواصلية.

وموازة مع المواقف السابقة هناك نظرية أخرى للحجاج تستمد مرجعيتها من الاتجاه التداولي الذي يحدد الحجج باعتباره نشاطا برهانيا. فالحجاج بالنسبة لهذا الاتجاه الذي نشأ في أمستردام بزعامة فان إمرن Frans van Eemeren نشاط شفوي واجتماعي للبرهان يستهدف إقناع القارئ والمتلقي على حد سواء بقبول المواقف المتناقضة من خلال تقديم مجموعة من الاقتراحات المخصصة للدفاع عنها أمام القاضي أو دحضها.<sup>13</sup> وتركز هذه المقاربة على الجانب الجدلي الذي يسمح بحل الصراع الفكري بين الطرفين من خلال وسائل البرهان، كما يقترح نفسه نموذجا للحوار النقدي الذي يفرض على الطرفين ضرورة التوصل إلى اتفاق عبر قبول المواقف المتعارضة.

ويرى كل من ليف Leff و تيندال Tindale أنه رغم تعدد المقاربات التي تناولت مسألة الحجج، فإن الحالة الحجاجية في عملهما القيم "البلاغة الحجاجية"<sup>14</sup> Rhetorical Argumentati، ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار ثلاثة عناصر أساسية هي: الذات الحجاجية والمتلقي وموضوع الحجج، وذلك عبر سياق تواصلية. وهذا يفسر كيف

ينظر معظم البلاغيين إلى بلاغة برلمان الجديدة باعتبارها النص المؤسس للتفاعل الجمالي و الإقناعي للصور البلاغية، وذلك من خلال إبراز التوازي البيوي بين الصورة البلاغية والحجاج، وفي هذا السياق ينص روبول Reboul على أن أعمال منظري الحجج تركز على أن كل صورة هي بمثابة نوع من الحجج وليس انزياحا عن قاعدة خارجية. وهذا التصور مخالف لنظرية كوهن التي ترى في كل صورة بلاغية: تركيبية أو دلالية أو صوتية انزياحا عن قاعدة موجودة خارج النص الفني. أما تيندال<sup>6</sup> فيؤكد أن مصدر الجودة والأصالة في بلاغة برلمان تكمن في عدم تصنيف الصور البلاغية إلى صور أساسية وأخرى ثانوية لأن كل صورة بلاغية تسعى إلى تحقيق نوع من الإحساس المشترك بين الباحث والمتلقي.

إن السؤال المركزي الذي يورق جل البلاغيين المعاصرين المدافعين عن حجاجية الصور البلاغية هو: هل تشكل الصورة البلاغية العامل المساعد للحجاج أم أنها تعتبر صورة حجاجية في حد ذاتها؟<sup>7</sup> و هل يمكن الحديث عن منطق مجازي؟ وما هي السمات المميزة لهذا النوع من المنطق؟<sup>8</sup>

يرى روبول أن تحديد العلاقة بين الصورة البلاغية و الحجج يستدعي التمييز بين نوعين من العلاقات، علاقة خارجية تحتل فيها الصورة البلاغية دور المساعد في بناء الصورة الحجاجية وعلاقة خارجية حيث تدخل الصورة البلاغية في بنية الحجج<sup>9</sup>. وبخلاف روبول، يشكك تيندال في إمكانية أن تهض الصور البلاغية القديمة بوظيفة حجاجية.<sup>10</sup> أو على الأقل ينبغي التمييز بين صور بلاغية قوية قادرة على أداء وظيفة حجاجية وصور بلاغية عادية عاجزة عن القيام بذلك.

وإذا كانت البلاغة الجديدة ذات البعد الفلسفي عند برلمان تركز على المسألة المنطقية للدليل على إمكانية التعامل مع كل ما هو منطقي في إطار تواصلية، فإن بلاغة مو البلجيكية ذات البعد اللساني، خاصة لسانيات ياكسون، تركز على البلاغة ليس باعتبارها وسيلة جدلية ولكن بوصفها أداة للشعرية عبر البحث عن الإجراءات اللغوية التي تميز الأدب عن غيره، وهي في الغالب عبارة عن إجراءات لغوية فردية. وانطلاقا من هذين الموقفين المتعارضين، نص أولفبييه روبول على أن بلاغة برلمان تركز على الإقناع في حين أن بلاغة كل من جماعة مو البلجيكية، ومورييه وجنيت وكوهن تركز على الإجراءات التي تجعل من نص ما نصا أدبيا.<sup>11</sup>

أن البلاغة هي أساس بل وشرط المظاهر المنطقية والجدلية للحجاج. والهدف من هذه المقاربة المستمدة من برلمان والبلاغة الكلاسيكية وكذلك من باختين Bakhtine هو تحديد وظيفة الحجاج ليس من خلال اللغة كما هو الشأن عند دوكرول ولكن من خلال الخطاب، سواء أكان هذا الخطاب بياناً صحفياً أم مقالة علمية أم حواراً تلفزيونياً الخ

#### الهوامش:

<sup>1</sup> -Anscombre et Ducrot 1988 P: 8

<sup>2</sup> \_ Perelman, Chaim & Lucie Olbrechts-Tyteca. 1970 [1958]. *Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique* (Bruxelles : Éditions de l'Université de Bruxelles

<sup>3</sup> \_ Groupe μ. 1970. *Rhétorique générale* (Paris : Seuil

<sup>4</sup> -Perelman et Tytica, *traite de l'argumentation*, p.05.

<sup>5</sup> \_ نفسه : 682

<sup>6</sup> \_ Tindale 2004 :P : 67-69)

<sup>7</sup> -Reboul, Olivier.. « La figure et l'argument », De la métaphysique à la rhétorique, *Meyer, Michel* (éd.) (Bruxelles : Editions de l'Université de Bruxelles 1986 P 175

<sup>8</sup> Bonhomme, Marc. 2005. *Pragmatique des figures du discours* (Paris : Champion p 179 .

<sup>9</sup> Reboul, Olivier. 1986. « La figure et l'argument P 184

<sup>10</sup>Tindale (2004 : P 59-69

<sup>11</sup> \_ Reboul, Olivier. 1991. « Peut-il y avoir une argumentation non rhétorique ? », Lempereur, Alain (éd.). *L'argumentation, Colloque de Cerisy* (Liège : Mardaga: 2-3

<sup>12</sup> \_ Perelman, Chaim & Lucie Olbrechts-Tyteca. 1970 [1958]. *Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique* (Bruxelles : Éditions de l'Université de Bruxelles p : 5

<sup>13</sup> \_ van Eemeren, Frans H. van & Peter Houtlosser (eds). 2002. *Dialectic and Rhetoric. The Warp and Woof of Argumentation Analysis* (Dordrecht : Kluwer Academic Publishers).

<sup>14</sup> \_ Leff, Michael. 2003. « Tradition and Agency in Humanistic Rhetoric ». *Philosophy and Rhetoric*, 36 : 2, 135-147